تجيبنا جوديث بتلر، ضمنيّا، في تبنّيها مؤلّف حنّة ارندت"الوضع البشريّ"، أنا موجودة بمعنى مهم بالنّسبة لك، وبفضل وجودك. إذا كنتُ قد خسرت شروط المخاطبة، وإذا لم يكن لديّ"أنت" أخاطبه، إذن فقد خسرت نفسي، عبارة تخلص بها إلى : دونما أنت تصبح قصّتي مستحيلة؛[1]تستتر في التّبنّي الصّلة بين الفعل والكلام، ولا ريب في هذا، ذلك أنّ حنّة أرندت تميل إلى السّياسة في تجاوزها التجمعات بفعل اللّغة، وهذا ربط يسوّغ في الكينونة السّياسيّة، بقولها:"إنّ البشر في صيغة الجمع، أي: البشر باعتبارهم يعيشون ويتحركون ويفعلون في هذا العالم لا يملكون تجربة المعقول إلاّ لأنّهم يتكلّمون، ويفهم بعضهم بعضا، ويفهمون أنفسهم".[2]وهي بمقولتها تخلص بأنّ كلّ فعل إنسانيّ، وكلّ معرفة، وكلّ تجربة لا تمتلك معنى إلاّ في صورة تمكّننا من التّعبير عنها. تذهب حنّة أرندت، في سياق جواب السّؤال، إلى تفكيك الحياة العمليّة، على اعتبار أنّ ثمّة اختلافا في النّشاط بين العمل، الأثر، والفعل، يقودنا إلى سؤال الكينونة، بين المجتمع والسّياسة؛ تحدّد أرندت الفعل في تميّز عن العمل والأثر، كونه النّشاط الوحيد الّذي يتموقع داخل المجتمع البشريّ، فالفعل يتجاوز العلاقة الاجتماعيّة الّتي تنحصر في مطالب، لا نختلف فيها عن التّجمعات الحيوانيّة، تمثّلها البيولوجيا، تحديدا. تستشهد جوديث بتلر في فصل الـــ"أنت" والـــ"أنا والـــ"أنت" من مؤلّفها"الذّات تصف نفسها" بتفكيكيّة جاك دريدا، في مسألة إعادة وصف الذّات بزمنات متقاطعة، وميشيل فوكو في نظام الخطاب، تجعل، في تقديري، سؤال فصل الأثر عن الفعل في طرح حنّة أرندت بحاجة إلى بيان متغيّر الثّقافة في التّواصل، أو بصورة أدقّ، في الفرد في خضم الحياة، حيث اللّبنة الأولى، هي تكوين الذّات؛ يبدو الأمر في سياق العلاقات، دائما بالمعنى الرّياضيّ الدّقيق، يحوّل وصف الذّات أكثر تعقيدا.

سؤال الفعل، هو سؤال قاعدته تمييز بين كلمة الأخلاق والخُلُق، على اعتبار التّفرقة بين المعايير والقوانين العامّة والنّظم الثّقافيّة، والتّصرف وفق المصلحة العامّة؛ هذه هي معضلة التّحليل النّفسيّ والتّواصل عامّة، فبتبنّي جوديث كتاب ثيودور أدورنو"مشاكل الفلسفة الأخلاقيّة" نكون أمام العنف الأخلاقيّ، فالوحدة المثاليّة، المتمثّلة في قانون الأخلاق، قامعة الرّوح المعاصرة، ما يجعل التّفكيك مجرد وهم؛ في هذا، قرنت جوديث بتلر وصف الذّات بمقولة أدورنو:"تقاس أهمّية الفكر بالمسافة الفاصلة بينه وبين تواتر المألوف".[3]ماذا تعني المسافة الفاصلة...؟، لا يمكن بتر ذوات فوكوية، من كتاب"وصف الذّات لجوديث"، في تكوين الذّات؛ ولأنّ المسافة الفاصلة بين الفكر وتواتر المألوف، تعني المعياريّة الاجتماعيّة، من جهة، فإنّها تعني، من جهة أخرى وبالضّرورة، لا تعالي نظام الاعتراف على الانفتاح النّقديّ؛ لكن، ما يشغلنا في سياق التّواصل النّفسيّ، في حضور القواعد الاجتماعيّة، هو عدم ملكيتها من قبل الـــ"أنا" أو الـــ"أنت"، مما يحيلنا، بفعل الانفتاح على النّقد، وفي فعل الانعكاس بالمفهوم الدّقيق، على تبادل الملكيّة؛ فأنا أعطي الآخر ما أملك، والآخر يعطيني بدوره ما يملك، بحوار الكينونة والملكيّة، أو بصورة أشدّ دقّة، هل يمكن وصل هذا الحوار بلا مشروطيّة الرّغبة؟، أي أنّنا، ضمنيا، في فعل الانعكاس، حيث نفهم عبارة جان لوك نانسي:"لا أستطيع أن أعترف بنفسي الّتي أعترف بها للآخر إلاّ بقدر ما يغيّرني اعتراف الآخر هذا: إنّها الرّغبة، وهو ما يرتعش في الرّغبة".[4]الرّغبة، هنا، تلك الحركة الّتي من خلالها نُعطي عندما نأخذ، في تجاوز للاشتهاء(أي، الرّغبة في الأخذ)، إلى إنماء الكينونة؛ الرّغبة في أن يُعترف لها بأنّها موضوع للرّغبة، أن نكون مرغوبا فينا كموضوع، الرّغبة غير المكتفيّة كرغبتنا البيولوجية في الأكل والشّرب، حيث تنعدم بالشّبع أو الارتواء، وإنّما الرّغبة المستزيدة في التّجديد بالإحساس، اللّذة، والذّوق؛ الرّغبة بمعنى الحبّ. ينفتح المعنى، ليس بقيمة الأخلاق كوحدة مثاليّة، ولكن، ببناء قيمة الأخلاق، بفعل الانفتاح على النّقد، يفسح مجالا للردّ على تساؤلات جوديث: ما نوع المنحة الّتي تعود لي بسرعة، والّتي لا تغادر يدي أبدا في الواقع؟، هل يتمثّل الاعتراف، كما جادل هيجل، في فعل تبادليّ أُدرك فيه أنّ الآخر مهيكل

---

[1] المصدر نفسه، 79.

[2] حنّة أرندت، الوضع البشريّ(مؤمنون بلا حدود، مؤسسة دراسات وأبحاث، 1998)، 24.

[3] جوديث بتلر،الذّات تصف نفسها، 39.

[4] المصدر نفسه، 71.

على نحو يشبهني؟، وهل أدرك أنّ الآخر يتوصّل إلى إدراك هذا التّماثل أو هو قادر على التّوصّل إليه؟، أم هل ثمّة هنا لقاء آخر مع الغيريّة لا يمكن أن يردّ إلى التّماثل؟. [5]أعتقد الإجابة على الأسئلة في مضمون الفعل، حيث يختلف بالحركيّة، اختلافا عن الاسم للبيان، فهل المنحة الّتي تعود بسرعة هي ذاتها الّتي لم تغادر بالفعل؟، وهل الفعل التّبادليّ يشي بالضّرورة بالتّشابه في الهيكلة؟، هنا، الفعل في صفته الحركيّة يرتدّ أو ينعكس في صيرورة تفاعليّة، تحوليّة، تفسّر معنى التّشابة في الفطرة؛ هذه المقدرة المشتركة الكامنة تعطينا فرصة التّوصل بالتّماثل، تستبعد، من وجهة تحليلي، اللّقاء مع الغيريّة خارج التّماثل؛ وهو ما نصل به إلى مساءلة الرّغبة خارج العلاقة. قد نصل، في مساءلة الرّغبة، إلى نقطة جديرة بالانطراح، شدّدت عليها جوديث بتلر، وأخذها البنيويون مرتكزا متينا، ماهو دور اللّغة في تكوين الذّات؟، وأضيف، هل بقيت اللّغة ثابتة قارّة أم أنّها ما بين الماضي والحاضر انحرفت عن هذا التّحايث؟؛ يُظهر دور اللّغة تجادلا بين الفعل والأثر، الأثر الّذي لا يعني إلاّ الآخر، ويعيق التّحريك، أعتقد هذا ما قصدته جوديث بالـ"أنا" لن تتمكّن أبدا من استعادة هذه العلامات أو قراءتها على نحو تام، إذ ستبقى هذه العلامات بالنسبة لها مربكة وعصيّة على القراءة جزئيا، ملغّزة وتكوينيّة.[6]فما يعيق هذا التّحريك؟، أو بالأحرى، هل على الفعل نظام يحجب استعادة العلامات أو قراءة الذّات على نحو تام؟...في اعتقادي، لا يختلف جاك لاكان عن ميشيل فوكو في قراءة الذّات بثلاثيّة الأنا والسّلطة، والرّغبة؛ يقدّم لنا فوكو حوارا ممتعا يشتقّه من: "كنت أودّ لو كان ورائي(وقد تناول الكلمة منذ مدّة طويلة مضاعفا من قبل كلّ ما سأقول) صوت يمكن أن يتحدّث هكذا: "يجب الاستمرار، لا أستطيع أن أستمر، يجب أن أستمر، يجب أن أقول الكلمات طالما أنّ هناك كلمات، يجب أن أقولها حتّى تعثر عليّ، وحتّى تقولني- إنّه عناء غريب- خطأ غريب، يجب الاستمرار، ربّما يكون ذلك قد حصل من قبل، ربّما تكون الكلمات قد قالتني من قبل، وربّما تكون قد حملتني إلى عتبة تاريخي، أمام الباب الّذي ينفتح على تاريخي، والّذي سيثير استغرابي إذا ما انفتح".[7]رمزّية الحوار تسوقنا إلى اندماج وتخوّف، تبيّنها كلمات التّردد، في حوار السّلطة والرّغبة غير المنسلختين بالأنا في الذّات، هو تجادل في الرّد على نفس التّخوف والتّردد، لا أستطيع، يجب أن...أستمر، أقول... تذبذب تجاه شكل الخطاب، النّطق أو الكتابة؛ تجاه اللاوجود، تجاه يمس الإرادة، المستقبل الغامض، خطر الخطاب، يهمّش له فوكو بـــ: " مصطلح لسانيّ، يتميّز عن نص وكلام وكتابة وغيرها بشكله لكلّ إنتاج ذهنيّ، سواء كان نثرا أو شعرا، منطوقا أو مكتوبا، فرديا أو جماعيا، ذاتيا أو مؤسسيا، في حين أنّ المصطلحات الأخرى تقتصر على جانب واحد. وللخطاب منطق داخليّ وارتباطات مؤسسيّة، فهو ليس ناتجا بالضّرورة عن ذات فرديّة يعبّر عنها أو يحمل معناها أو يحيل إليها، بل قد يكون خطاب مؤسسة أو فترة زمنيّة، أو فرع معرفيّ ما".[8]

للخطاب منطق داخليّ وارتباطات مؤسسيّة، منتوج يخترق الذّات، يحمل معنى أو يحيل إليه، بخطاب نظام في شكل معرفة، في تاريخ؛ فقرة نقف بها على تساؤلات، يرادفها فوكو بالإجراءات أو الحدود، يتقدّمها المنع، في صورة أكثر بداهة وأشدّ تداولا؛ يعرفه التّحليل النّفسيّ بالكبت، يتشكّل بموضوعات الرّغبة، بطقوسها، بخصوصيتها الممنوحة، يتعقّد بها مندمجة أو غير مندمجة في تعديلات دائمة، يحيط بمنطقتين، هما الجنس والسيّاسة، بتحليل ميشيل فوكو، حيث يتمنّع الخطاب بأشكال المنع المتجذّرة في هذين المنطقتين، الرّغبة والسّلطة؛ ما معنى التّخوف تجاه اللّاوجود، تجاه المستقبل الغامض...؟، ألا يرتبط هذا بالعقل وما يقابله، بحياة العقل واللّاعقل، بالتّفكير والإرادة بلغة حنّة أرندت، بالوعي واللاّوعي...؟، يعبّر عنه فوكو بإجراء ثان، على خلاف المنع، بعملية القسمة والرفض، حيث الكبت له تصاريفه، خارج العقل، في دائرة الحمق، عبر انفلاتات، يُبحث بها المعنى، عن الرّغبة في ثنايا القمع، وإن كان مصطلح القمع غير مأمون في نظر فوكو ويبقى شديد الالتصاق بالسّلطة وصعب الانتزاع منها، عن بقايا الرّغبة الّتي لم تمت كليّة، عن خطاب الرّغبة برمزيّة، بأثر

---

[5] المصدر نفسه، 72.

[6] المصدر نفسه، 136.

[7] ميشيل فوكو، نظام الخطاب(باريس، دار غاليمار للنّشر، 1971)، 3.

[8] المصدر نفسه، 4.

لم ينمح؛ يسير بنا إلى تقابل آخر، يذكره فوكو في عبارة: "قد يكون من باب المغامرة اعتبار التعارض بين ماهو حقيقي وما هو خاطيء بمثابة منظومة ثالثة للإبعاد. كيف يمكننا أن نقارن مقارنة معقولة إجبارية الحقيقة بقسمات كهذه، قسمات تكون جزافيّة في البداية أو على الأقلّ تنتظم حول عوارض تاريخيّة، قسمات لا تعتبر فقط قابلة للتّعديل ولكنّها في حالة تنقل مستمر، قسمات تحملها منظومة كاملة من المؤسسات بحيث تفرضها وتقودها، وهي في الأخير قسمات لا تمارس بدون إرغام ولا بغير قسط ولو ضئيل من العنف".[9]
إنّ التّحفظ على قراءة كتاب نظام الخطاب، هنا، يرتد إلى مشكلة التّرجمة، وإذا جاز لنا الإسقاط، في فعل التّواصل، نكون أمام طرح إضافيّ لميشيل فوكو، فهناك إجراءات داخليّة تقابل الخارجية ترتبط بالخطاب ذاته في ممارسة فعل مراقبته الخاصّة، الّتي حدّدها في المنع والقسمة والحقيقة، حيث أنّ التّرجمة من اللاّوعي إلى الوعي، هي شبيه بترجمة من لغة إلى أخرى، لأسباب تتعدّد وتتواشج؛ لذلك ينبني التّواصل على الحوار، في مقاربة المعنى؛ يمنحنا فصل" الحقيقة والسّلطة"...حوار مع فوكو، فرصة أكبر في فهم مصطلحاته، البنية، الحدث، التاريخ، اللّغة...هذه الإجراءات الدّاخلية يصل بها فوكو، بمبدأ التعليق، إلى أنّ الجديد ليس قائما فيما قيل، بل في حدث عودته؛ لعل تخمين فوكو بوجود نوع من عدم التّسويّة في الخطاب، يدفعني إلى قراءة في التّحليل النّفسيّ، والتّواصل عامّة، بعبارته:"البارز من النّص القسم الأوّل، واستمراريته، وكيانه القانوني كخطاب قابل لأن يأخذ دوما صبغة راهنة، والمعنى المتعدّد أو المخفي الّذي يبدو أنّه يملكه، والإضمار والثّراء الأساسيان الّذان ينسبان له، كلّ ذلك يؤسس إمكانيّة مفتوحة الكلام، لكن، من جهة أخرى نجد أنّ التّعليق ليس له من دور- مهما كانت التّقنيات المستعملة- سوى أن يقول في الأخير ما كان منطوقا به بصمت هناك".[10]بهذه الإحالة يمكن بسط السّؤال: كيف نقرأ عبارة الجديد ليس قائما فيما قيل، بل في حدث العودة؟. الاستدراك الوارد على التعدديّة المفتوحة، بقول ما كان منطوقا به بصمت هناك، فقط، يرتبط بالعدد، الشّكل، القناع، وظروف التّكرار؛ وفي هذا يضيف فوكو، لمبدأ التعليق، الفرد المتكلّم المؤلّف كوحدة وأصل لدلالات الخطاب؛ في سؤال طُرح على فوكو حول البنية والحدث، باعتبار مركزيّة هذا الأخير في تفكيره، وباعتبار الانفصال الحاصل بين البنيات والحدث، بمعيار آلية ومدار التّحليل في تصوّر البنية، على خلاف الحدث؛ يحتج ميشيل فوكو بضرورة وجود سلّم أو سلسلة من الأحداث الّتي لا تأخذ نفس القيمة والأهميّة، ولا نفس المقدرة في إحداث التّأثير؛ ويؤكّد على التّمييز بين الأحداث والتّمييز بين الشّبكات والمستويات الّتي تنتمي إليها؛ في إشارة إلى، بالتّفكيك وإعادة التّشكيل، مصدر رفض التّحليل البنيوي القائم على الرّمز، واقتراح الاعتماد على التّحليل في الصّراعات، فالتّاريخيّة تاريخيّة سلطة، لا تاريخيّة لغويّة؛ أي أنّ بنية تشكّل اللاّوعي تختلف بين اللّغة والصّراع.

[9] المصدر نفسه، 7.
[10] المصدر نفسه، 13.